الفصل الثانى عشر

البنيوية والقطيعة بين الإنسان والعالم الخارجى

البنية عبارة عن صورة منظمة لمجموعة من العناصر المترابطة فيما بينها بعلاقات ثابتة قادرة على أن تنظم نفسها تنظيمًا داخليًّا يخلع عليها معقولية نابعة من ذاتها ويؤدى إلى تكوين كيان مستقل لها يقف فى وجه مبادرات الذات الإنسانية حتى يشلها أو يخفيها، إن لم يؤد إلى إلغائها تماما.

وإذا كنا قد بحثنا فى هذا الباب مسألة العلاقة المعرفية بين الإنسان والعالم فى تطور الفكر الفلسفى الغربى، ورأينا أن هذه العلاقة قائمة على ضرب من التواصل بين الذات الإنسانية والعالم الخارجى، فإنه من باب المفارقات التاريخية المدهشة حقًّا أن يشهد الفكر الفلسفى الغربى فى آخر تطور له على يد البنيوية قطيعة معرفية أو أبستمولوجية بين الإنسان والعالم، وذلك لأن هذا من العلاقات الثابتة الذى تمثله البنية سيقف بالضرورة فى وجه أى تواصل بين الذات والعالم، وبالتالى فإن هذه القطيعة المعرفية من شأنها أن تترك كل أفعال الإنسان ونشاطاته خاضعة للاشعور واللامعقولية.

وقد بدأت البنيوية من مطلع هذا القرن على يد العالم اللغوى السويسرى فرديناندى سوسير الذى رفض دراسة اللغة كظاهرة اجتماعية وآثر أن يقف عند دراسة الثنائيات التى تثيرها الدراسات اللغوية ويؤدى الاهتمام بها إلى حصر اللغة فى آلياتها الخاصة وعزلها عن محيطها الخارجى، مثل ثنائية اللغة والكلام وثنائية الصوت والمعنى وثنائية علم اللغة الداخلى وعلم اللغة الخارجى، وكان اهتمام دى سوسير بالصوت (الدال) على حساب المعنى أو المضمون (المدلول) وباللغة الداخلية على حساب اللغة الخارجية التى تمثل علاقة اللغة بالدوائر التى تؤثر فيها كالحضارة والتاريخ، وقد اتجه دى سوسير كذلك إلى تثبيت الظواهر اللغوية وعزلها عن التطور والتاريخ، وبمعنى أنه ألغى تزامن تلك الظواهر بالزمان والتاريخ واكتفى بعلاقاتها الداخلية وتزامنها فى زمانها الداخلى الخاص بها.

وقبل أن نتتبع بعض تطبيقات الحركة البنيوية فى مجالاتها الرئيسية التى عرفت بها وكانت متأثرة بدراسات دى سوسير فى اللسانيات، نود أن نشير الآن إلى أن هذه الحركة

قد ازدهرت فى الستينيات وأوائل السبعينيات من هذا القرن، كرد فعل على الفلسفة الوجودية التى كانت مسيطرة على الساحة الفكرية فى فرنسا، فقد رأى رواد البنيوية ليفى شتراوس أن محاولة الوجودية للوصول إلى حقيقة الإنسان عن طريق «التجربة المعاشة» محاولة فجة وسطحية تعجز عن معرفة القواعد والعلاقات الباطنية الكامنة داخل الإنسان، إذ إنها تقف عند الظواهر الخارجية وتعتمد على تحليل المشاكل الفردية والتجارب الشخصية وترقى بها إلى مستوى المشاكل الفلسفية، ويؤدى هذا – من وجهة نظر شتراوس – إلى لون من ألوان الفلسفة السوقية!.

وقد نشأت البنيوية أيضا – وبشكل أساسى – كرد فعل ضد النزعة التاريخية التى تزعم القدرة على تفسير أية ظاهرة إنسانية من خلال معرفة تاريخها، فالإنسان عند أنصار النزعة التاريخية «كائن تاريخى» قبل أى شىء، وهذا ما يميزه عن سائر الكائنات، لأنه الكائن الوحيد الذى له تاريخ، ومن هذا المنطلق عمل التاريخيون على تفسير أية ظاهرة بالرجوع إلى الإطار التاريخى الذى ظهرت فيه، ونظروا إلى التاريخ نفسه باعتبار أنه فى تقدم مستمر، تضيف فيه كل مرحلة تاريخية جديدًا إلى المرحلة السابقة عليها، وهذه الإضافات تتم بطريقة تراكمية أما فلاسفة البنيوية فقد رفضوا هذا التصور التاريخى، وقدموا تصورًا آخر، مفاده أن هناك بنية واحدة فى كل المراحل التاريخية، وهذه البنية تتميز بالثبات والسكون وكل ما يفعله التاريخ مع هذه البنية هو أنه يعمقها ويعيد النظر فيها، ويزيدها تعقيدًا وسعة، ولذلك فإن النزعة التاريخية إذا كانت تقول بأن التاريخ يسير بشكل صاعد إلى أعلى، فإن البنيوية تنظر إلى التاريخ نظرة سكونية، فتقول بالتوازى بين العصور القديمة والعصور الحديثة، والفرق الوحيد بين القديم والجديد هو فى العمق والسعة والتنوع، أما البذرة أو الأصل البنيوى فهو واحد لا يتغير فى كل الأحوال.

ولقد أراد البنيويون من وراء السعى نحو الوصول إلى البنيات الثابتة التى تكمن وراء التغيرات والمظاهر – التشبه بالعلوم الطبيعية والرياضية فى سعيها لمعرفة قوانين الكيفية الغامضة، ولذا يمكن القول بأن البناء الذى تسعى إليه الدراسات البنيوية فى العلوم الإنسانية، شبيه بالقانون الرياضى العلمى فى العلوم الطبيعية، ومن هنا يبرر الفلاسفة البنيويون «لا تاريخهم»، فإن البنية بدورها «لا زمانية» لأنها تعبر عن ضرورة مماثلة.

وحتى نزيد هذا الأمر وضوحًا لنضرب مثلًا على ما تحاول أن تقوله البنيوية من خلال أحد أعلامها وهو ليفى شتراوس، الذى ركز أبحاثه وتطبيقاته البنيوية فى مجال

الأنثروبولوجيا، فدرس المجتمعات البدائية بهدف استخلاص آليات التفكير التى تتحكم فى نظرتها إلى الأشياء، وكان يرى أنه إذا ما تمكن من استخلاص هذه الآليات، فإنه سيتمكن من معرفة العقل الإنسانى بشكل عام، لأن للعقل الإنسانى هوية ثابتة لا تتغير رغم اختلاف العصور والحضارات، والعقل البدائى بأنماطه ما يزال يؤثر فينا بشكل خفى رغم كل التعقيدات التى تكتنف تفكيرنا، وقد ركز شتراوس فى دراسته الأنثربولوجية على أساطير المجتمعات، وتوصل شتراوس إلى رأى جديد فى مجال دراسته للأساطير، فحواه أن التفكير الأسطورى تفكير له منطق خاص له، ولذا فمن الخطأ القول بأن هناك تفكيرًا غير منطقى وتفكيرًا منطقيًّا، أو أن هناك تفكيرًا متوحشًا وتفكيرًا مدنيًّا: ذلك أن تفكير المجتمعات البدائية تحكمه عمليات منطقية مثل تلك العمليات التى تحكم التفكير الحديث، والخلاف الوحيد بينهما يكمن فى أن التفكير الأسطورى تفكير منطقى على المستوى المحسوس.

وتمخضت أبحاث شتراوس عن عديد من النظريات الأخرى، نذكر منها – على سبيل المثال – تلك النظرية التى تشير إلى أن هناك بناءً أساسيًّا واحدًا يكمن خلف نظام القرابة ونظام اللغة فى المجتمعات البدائية، فإذا كان نظام اللغة قائمة على تبادل الألفاظ والرسائل من أجل التواصل أو الاتصال بين الأفراد والجماعات، فإن نظام القرابة قائم أيضًا على تبادل النساء أو الرسائل فى المجتمعات البدائية بين الأفراد والأسر من أجل التواصل أو الاتصال، ولا تدل ظاهرة تحريم الزواج من الأقارب مثل الابنة والأخت على المنع بقدر ما تدل على العطاء: عطاء الابنة والأخت وسائر المحرمات إلى الآخرين.

وإذا كان شتراوس قد ركز فى دراسته على المجتمعات البدائية، فإن هناك فيلسوفًا بنيويًّا آخر هو ميشيل فوكو قد ركز فى دراسته على الفكر الحديث وخاصة الفكر الأوربى، ففى كتابه «الكلمات والأشياء» الصادر سنة ١٩٦٦م درس العقل الأوربى الحديث فى قرونه الخمسة الأخيرة، وقسمه إلى مراحل لكل مرحلة بناء مغلق ونسق محدد ثابت، لكنه لم يدرس أسباب التحول والانتقال من مرحلة إلى مرحلة.

ووصف فوكو معارف وأفكار عصر النهضة بأنها محددة مغلقة على ذاتها، يسودها الوحدة والتشابه، ومن هنا فقد اعتبر أن البناء المسيطر على ذلك العصر هو بناء شبيه بالمجال المرجعى أو بالفلك الدائرى المقفل، أما العصر الكلاسيكى – ويشمل القرنين

السابع عشر والثامن عشر – فإن معارفه وأفكاره تتسم بالنظام سواء فى العلوم أو الفنون أو النظم السياسية، وينتهى فوكو إلى أن نموذج المسطح هو الذى يعبر عن روح النظام السائدة فى هذا العصر، أما القرن التاسع عشر فيرى فوكو أن «التاريخ» قد حل فيه محل «النظام» وعندما يصل إلى العصر الحالى يقول إن النموذج الهندسى الذى يعبر عنه هو المثلث: لأن العلوم السائدة فيه تنقسم إلى ثلاثة أنواع: العلوم الرياضية والفيزيائية، والعلوم التجريبية مثل اللغة والبيولوجية والاقتصاد والفكر التأملى الفلسفى.

وهكذا نرى أن فوكو قد حاول أن يعبر عن البناء الداخلى الذى يميز كل مرحلة من مراحل الفكر الأوربى الحديث، ولا شك أنه وقع فى أحكام تعسفية تعمل على اختزال العصر كله فى فكرة واحدة وبناء ثابت، مع أن من المؤكد أن فى كل عصر من العصور التى أشار إليها فوكو تيارات فكرية متباينة تصدع مقولاته التعميمية، فليس عصر النهضة – على سبيل المثال – هو عصر الانغلاق والوحدة والتشابه بقدر ما هو عصر الشك والقلق والإشكالات الفلسفية والأفكار القلقة الوثابة، كما أن فوكو قد عجز عن فهم سر التحولات من عصر إلى عصر، ولم يفسر التغيرات التى كانت تطرأ على الفكر الأوربى فتجعله ينهى عصرًا ويبدأ عصرًا جديدًا، وهذا يرجع إلى عدم اكتراث فوكو بـ «التاريخ» و «التطور» وتركيزه على الثوابت البنيوية التى تكمن خلف التغيرات الظاهرية التى يعتبرها تغيرات سطحية وعرضية فى حين أنه يعتبر الثوابت البنيوية هى الأصل والجوهر. بيد أن هذا النقد لا يوجه إلى فوكو فقط وإنما كل الفلاسفة البنيويين الذين اهتموا بالبنيات الساكنة وأهملوا التاريخ والتطور والصيرورة.

ويطلق فوكو على منهجه اسم المنهج الأركيولوجى أو الحفرى الذى يرمى من ورائه إلى دراسة متعمقة لكل عصر من العصور التاريخية، يقوم فيه بالحفر فى بنيات ذلك العصر للوقوف على المجال المعرفى والمرجعى الذى يكمن وراء التجارب التى مر بها ذلك العصر، والانتقال من المجال المعرفى لعصر ما إلى المجال المعرفى لعصر آخر لا يخضع عند فوكو لأى تفسير عقلى ولا صلة للمجال الجديد بالمجال القديم، لأن المجال الجديد يمثل دائمًا قطيعة أبستمولوجية مع المجال السابق عليه باعتبار أن التاريخ فيما يرى فوكو غير متصل الحلقات ويخضع فى تطوره للتغيرات الجذرية المفاجئة التى تحركها قوى مجهولة، هى التى تتحكم فى التاريخ كما أيضا المسئولة عن ظهور الهياكل البنيانية، وقد طبق فيلسوف عن ظهور الهياكل البنيانية، وقد طبق فيلسوف آخر هو «آلتوسر» تلك

الأقوال فى القطيع المعرفية على دراسته للماركسية فذهب إلى أنه لا صلة تاريخية بين هيجل وماركس، وهذا الأخير لا يمثل هيجل مقلوبا على رأسه لأن الماركسة ليست جدلاً هيجليًّا مقلوبًا على نحو ما يقال عادة، بل هى قطيعة معرفية مع الهيجلية وهى – أى الماركسية – خاضعة لمفاهيمها النظرية الخاصة، وقد اهتم بتثبيتها آلتوسير ليكشف عن البنيات النظرية للفكر الماركسى.

وهكـذا نـرى أن التركيز فى هذا الاتجاه الفلسـفى على الهيـاكل البنيوية: الثنائيات اللغويـة عند سوسـير بدلاً من علاقـة اللغة بالعالـم الخارجى – الرسـائل المتبادلة بين الأسـر فى المجتمعات البدائية بدلاً من الاهتمام بعلاقة تلك المجتمعات بالتاريخ وبالتطور التاريخى عند كلود ليفى شـتراوس – المجال المرجعى الخاص بكل عصر من العصور مع القطيعة المعرفية بينه وبين العصر السابق عليه واللاحق له عند ميشيل فوكو وعند آلتوسير.

وليس من شك فى أن دراسة الهياكل البنيوية أمر بالغ الأهمية وقد أهمل تلك الدراسة الفلاسـفة الماركسـيون عندما اتجهوا إلى دراسـة التاريخ مباشـرة أو قفزوا إلى ذلك دون أن يقفوا وقفة مستأنية عند تلك الهياكل البنيوية التى تمثل عتبات التاريخ، ولكن الاكتفاء بتلك الهياكل والاسـتغراق فى بحثها مع عدم تجاوزهـا والخروج منها إلى آفاق تاريخية وحضارية أكثر اتساعًا هو ما نعيبه على الفلسفة البنيوية بوجه عام.

وليس من شـك فى اكتفاء البنيويـة بالوقوف عند الهياكل البنيوية قد جعل الإنسـان أسـير تلك الهياكل وأقام حاجزًا بينه وبين العالـم وبينه وبين التاريخ وجعله مجرد نقطة لقاء لتيارات ترد عليه من تلك الهياكل، وهو فى موقف سلبى منها لا يملك بصددها دفعًا ولا صدًا ولا تغييرًا، الأمر الذى أدى فى حقيقة الأمر إلى موت الإنسـان، بعد أن شـلت مبادراته الفردية وتحجرت أفعاله فى ردود أفعال لتلك الهياكل البنيوية لا غير، وأصبحنا نبحث عن الذات الإنسـانية الفردية المسئولة عن بناء العالم، المشاركة مشاركة فعالة فى رسم خريطة المستقبل فلا نكاد نجدها فى الفلسفة البنيوية.

ونحن نتساءل فى خاتمة تلك الجولة التى قمنا بها فى دراسة تطور الفكر الفلسفى الغربى: هل هذه هى خاتمة المطاف للعلاقة بين الإنسان والعالم فى الفكر الفلسفى الغربى؟

لقد بدا لنا أن الإنسان أخذ يفقد مركزه شيئًا من خلال التصورات المختلفة التى قدمت على يد الفلاسفة حول العلاقة بين الإنسان والعالم الخارجى. فمنذ كوبرنيكس العالم الفلكى

لم يعد الإنسان يمثل مركز العالم على نحو ما كان الحال فى نظام بطليموس الذى تصور فيه أن الأرض هى والإنسان الذى عليها يمثلان مركز هذا العالم. وفقد الإنسان مكانته مرة ثانية على يد دارون، ومرة ثالثة على يد فرويد الذى أخضع الذات الإنسانية الواعية للاشعور وجعلها تمثل نقطة لقاء لكثير من التيارات الحشوية والفسيولوجية واللاشعورية المختلفة. وقد رأينا الآن فى دراستنا لآخر تطور يشهده الفكر الفلسفى الغربى على يد البنيوية أن الذات الإنسانية أصبحت عند رجال تلك الحركة فى موقف سلبى تمامًا أمام الهياكل البنيوية بحيث أصبحوا يتجهون إلى استبعادها، وبالتالى استبعاد الإنسان نفسه. فهل نستخلص من هذا أن الفكر الغربى قد قدم شهادة عجزه للتاريخ؟ وهل نقفز بعد هذا إلى القول بإفلاس الحضارة الغربية؟.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة بالإيجاب قد يرضى غرورنا نحن فى عالمنا العربى الإسلامى ولكننا لا نميل – من وجهة نظرنا الشخصية – إلى تلك الآراء المتعجلة خاصة وإن الفكر الإنسانى بضاعة واحدة والبنيوية فى آخر المطاف ليست إلا موجة فكرية، قد تعقبها موجة فكرية أخرى تعلى من قدر الإنسان ومكانته. وتطور الفكر الفلسفى الغربى يمثل على نحو ما رأينا موجات فكرية متعاقبة، بعضها بعد بعض، تكتب الغلبة فيها حينًا للإنسان ولذاته المفكرة وتكتب فيها أحيانًا أخرى الغلبة عليه. ولكنه سيظل هو دائمًا الخليفة: خليفة الله فى الأرض.

* * *